المحاضرة السادسة

الفكر السياسي في العصور الوسطى

السياسة عند القديس أوغسطين

توطئة:

يُعتبر القديس أوغسطين (354–430م) أحد أعلام الفكر الفلسفي والديني في العصور الوسطى، وكان لفكره أثر عميق في تطور الفكر السياسي الغربي المسيحي في العصور اللاحقة سواء الحديثة أو المعاصرة. وقد كان لعصره المضطرب – من غزوات البرابرة وسقوط الإمبراطورية الرومانية – تأثير كبير على رؤيته السياسية والدينية، وهو ما انعكس في كتابه الأهم "مدينة الله". يقدّم أوغسطين تصورًا ثنائيًا للعالم من خلال مفهومه لمدينتين: مدينة الله ومدينة الإنسان والتي لا يمكن فهمها إلا من خلال إدراك خلفيتها الدينية. وُلد أوغسطين في مدينة طاغست الرومانية (سوق أهراس الحالية) في الجزائر، وكان في بداية حياته منجذبًا إلى المانوية، ثم إلى الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، قبل أن يتحول إلى المسيحية ويصبح أسقفًا على مدينة هيبّو (عنابة الحالية). عاش في فترة كانت فيها الإمبراطورية الرومانية تتعرض لهزات سياسية واقتصادية وعسكرية، وهو ما جعله يسعى إلى تقديم إجابات فلسفية ولاهوتية لأزمة عصره. عاصر أوغسطين سقوط روما عام 410م، وهو الحدث الذي دفعه لكتابة كتابه الأشهر "مدينة الله" ردًا على من اتهموا المسيحية بأنها سبب انهيار الإمبراطورية وهو الأمر الذي يجعل من الدين مدخلا للفكر السياسي عند القديس أوغسطين.

1- مدينة الله ومدينة الإنسان – المفهوم والتصور-:

يشكل مفهوم مدينة الله جوهر النظرية السياسية لأوغسطين. وقد استخدمه لتفسير التاريخ البشري منذ خلق الإنسان حتى نهاية العالم أو ما يسمى نهاية التاريخ.

- **مدينة الله :(Civitas Dei)** تقوم على حب الله، وتمثل جماعة المؤمنين الذين يسعون إلى الخلاص الأبدي. هذه المدينة غير مرئية بشكل كامل على الأرض، بل هي غاية المخلصين في الحياة الآخرة. وكأنها فكر ميثالية أو ميتافيزيقية تعبر عن ما ينبغي أن يكون بالنسبة للأوغسطين.
- **مدينة الإنسان :(Civitas Terrena)** تقوم على حب الذات والسعي وراء السلطة والمجد الدنيوي. وهي المدينة التي تمثل المجتمعات التي لا تحتكم إلى إرادة الله. وهي تعبر عن الواقع وعن النظرة النقدية التي وجهها له أوغسطين.

استنتاج

هذان الكيانان يتعايشان في التاريخ، وقد يتداخل أفرادهما في الحياة الأرضية، لكن مصير كل مدينة مختلف: الأولى مصيرها الخلود، والثانية مصيرها الزوال.

2- السلطة والدولة:

لم يرَ أوغسطين في الدولة مؤسسة مثالية أو مُنزّلة، بل اعتبرها نتيجة ضرورية للخطيئة الأصلية. فالإنسان بعد السقوط في الخطيئة لم يعد قادرًا على تنظيم حياته دون وجود سلطة تفرض النظام وتمنع الفوضى. ومع ذلك، لا تُعد الدولة تجليًا لإرادة الله بالمعنى الكامل، بل هي وسيلة مؤقتة لضبط الشر ومنع التعدي، أي أنها ذات وظيفة أخلاقية محدودة. يعبّر أوغسطين عن هذا المفهوم في قوله: إذا أُزيل العدل، فما الفرق بين الدولة وعصابة من اللصوص؟"

بالتالي، فإن الشرعية السياسية عند أوغسطين لا تقوم على القوة أو القانون فقط، بل على مدى اقتراب الدولة من العدالة الإلهية وهو الأمر الذي يجعل من النظرية السياسية عند أوغسطين محاكاة لعالم المثل عند أفلاطون.

3- العدال والسلم كغاية سياسية:

يرتبط مفهوم العدالة عند أوغسطين بإرادة الله وليس بإرادة البشر. فالدولة التي لا تسعى لتحقيق العدالة الإلهية، تفقد مشروعيتها. بمعنى أن العدالة لا يمكن تحقيقها إلا من خلال تصور ثيوقراطي للدولة.

أما السلام، فهو نوعان:

- **السلام الدنيوي** :وهو ترتيب مؤقت للعلاقات الاجتماعية والسياسية بهدف حفظ النظام.
- **السلام الإلهي:** وهو السلام الأبدي الذي يتحقق فقط في مدينة الله.

الدولة يمكنها السعي نحو السلام الأرضي، لكن لا يمكنها تحقيق السلام الكامل، لأنه مرتبط بالعالم الآخر.

4- الدولة والكنيسة:

رغم أن أوغسطين لم يدعُ صراحةً إلى حكم ديني، إلا أن فكره مهّد لنوع من السمو الروحي للكنيسة على الدولة. فبينما الدولة تنتمي إلى مدينة الإنسان، فإن الكنيسة تنتمي إلى مدينة الله، وهي تمثل سلطة أخلاقية وروحية تسمو على السلطة الزمنية. لكنه لم يدعُ إلى صدام بين المؤسستين، بل إلى نوع من التعاون المشروط، حيث تلتزم الدولة بتوفير الظروف اللازمة لنشر الفضيلة، في حين توجه الكنيسة الضمير الأخلاقي للمجتمع.

خاتمة: (تأثير القديس أوغسطين في الفكر اللاحق)

امتد تأثير أوغسطين قرونًا طويلة في الفكر السياسي الأوروبي، وخصوصًا في العصور الوسطى. فقد اعتمدت الكنيسة الكاثوليكية كثيرًا من رؤاه، كما أثر في مفكرين مثل توما الإكويني، ومارتن لوثر لاحقًا.

كما أن مفاهيمه حول الخطيئة، والسلطة، والعدالة، والمدينة السماوية، ظلت تُستخدم في تأطير العلاقة بين الدين والسياسة حتى القرون الحديثة.

عموما شكل الفكر السياسي عند القديس أوغسطين انطلاقة جديدة في فهم الدولة والسلطة من منظور مسيحي. فقد رفض النظرة الرومانية الوثنية التي تُمجّد الدولة، وطرح بديلًا روحيًا يرى في الدولة وسيلة لا غاية، وفي العدالة الإلهية معيارًا للحكم الصالح. إن ثنائية مدينة الله ومدينة الإنسان ما زالت تلهم النقاشات حول دور الدين في السياسة، وحدود السلطة الزمنية، مما يجعل الفكر السياسي الثيوقراطي حيًا إلى يومنا هذا.

أهم المراجع حول موضوع الفكر السياسي عند القديس أوغسطين

1. القديس أوغسطين، *مدينة الله*، ترجمة: الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، 2003.
2. فهمي هويدي، *الكنيسة والدولة في الفكر الغربي*، دار الشروق، القاهرة.
3. محمد عابد الجابري، *نقد العقل السياسي العربي*، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
4. يوسف زيدان، *الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى*، دار الشروق.
5. حسن حنفي، *مقدمة في علم الاستغراب*، خصوصًا الفصول المتعلقة بالفكر المسيحي الوسيط.